حتى القبور يا « سين » ... ترفض الاصغاء !

قصة بقلم عروسية النالوتي

مازالت بعض الشعيرات المنفوشة تنتحب على صلعتك الكبيرة السافرة ... وبعض اهداب تتعثر متسكعة على ضفاف عينيك المكلومتين وعلى لسانك ـ أتذكر ـ شجيرات العيون الحلزونية تمنع انزلاق الكلمة الهدروجينية ..

كان العالم الكبير يخافك يا « سين » .

يخاف صلعتك ـ لو تعلم ـ ليتك كنت تعلم .

يخاف وريقاتك فيبدي لها الاحتقار .

حتى أصابعك المتورمة كباذنجانة مترهلة كانت تفزعهم فيحسبونها قنبلة من مخلفات الحرب الكونية الثانية... أو منشآت الحرب المبيدة الآتيـــة .

سامحك الله كم كنت تخيفهم !

* * *

سرت في الزقاق الضيق الوسخ ... تحسست خطواتك بيـــن اكوام النفايات المعروضة في سخاء... الروائح ياسين مشتبه بسمعتها. وبهو خياشيمك جسم كل شيء ...

الروائح ياسين تبحث كاسيادها عن مشروع فكرة جريئة تستحـــم داخل وعاء التحميض الجائم في ركن ما من أركان الدماغ الكبير .

حملت كل مرة أوراق خطابك الكبير في محفظتك المصونـــة ، فتساءلت كثيرا : كيف وجدتك الافكار فوجدتها ، كيف قبضت عليـك فقبضت عليها وقيدتها بالحبر الاسود ....

لا تعرف كيف ياسين .

كل ما تذكره ... خطوط سوداء .. انيقة على ورق عادي أبيض. وتذكر عبر الضجيج انك ابتسمت عندما القيت خطابك من فوق كرسي مسلول ، يسعل عند كل حركة منك وسط الغرفة الباردة الجرداء .

كنت ترى ياسين آذانا كبيرة ـ حاول ان تتذكر ـ كانت اذانـــا عريضة كآذان الفيلة .. تتزاحم في غرفتك ... تتسلق الجدران ... تحبو على الارض .. تتزحلق على السقف .. تريد الاقتراب مـــــن منصتك .

وسائل النصر ياسين ، شراب « الماريجوانا » ، يمتزج بزبـــــد ريقك اللاهث وراء الكلمات .

الغرفة مركبة آذان ... والهواء يكاد ينتحر .

لم تتم خطابك ياسين كل مرة ... ارحت جسد الكرسي المبحوح ... قهقه الكرسي ياسين ... حتى اشياؤك تسخر ... لم يعد يثيرك الضحك ...

اردت ان تحمل الآذان الكبيرة في حقيبتك وتزرعها في قاعـــة المحاضرات الواسعة ... لا تخف عنك رغبتك ياسين ... ليس عيبا ان تحلم بخاتم « حبيك لبيك » داخل غرفتك .

لكن الرؤيا تزول حين تلامس رجلاك « جليز » الغرفة البلهاء .

* * *

هي القشعريرة العنيفة تمزق عبر نخاع عظامك ... وتذكر خطبك السابقة في القاعات العريضة الفارغة ... وصوتك ياسين فيالمصدح مخيفا ... أصداؤه مفزعة تعمر الفراغ ...

أتذكر ياسين الكرسي المقلوبة ؟ ومكنسة يجرها صاحبها هزيلة ؟. لم يفهم من كلامك شيئا ... كان يحسبك تلقي خطبة الجمعة فيـــردد عند اخر كل جملة : « آمين يا رب العالمين » ...

ويقلقك الكناس « ياسين » بدوي كراسيه . ومكنسته ... لـــم تنجح في الحقد عليه ... كنت تحبه ... وتخجل منه ...

ظننته يبكي وقد رفع منديله يمسح العرق عن اهدابه والتزمـــت فاصلا بكائيا مساندة لنواحه الصامت .

خجلت من دموعك ياسين ... القاعة تحولت ماتما حزينا وتجمع وريقاتك الامينة ... تنزل كل مرة من على منصتك .

ـ صوتك يخفيك .

احسست بنفسي القشعريرة وانت تسير في الزقاق المظلـم... ضممت محفظتك الى صدرك .. عانقتها طويلا .. خفت عليها من أشباح الظلام ، تسرق أفكارك منها .

أسرعت قليلا ... أسرعت افكارك معك .

« في هذه المرة لن يسخروا مني ... لن يتركوني اخطبوحدي. لن ينقلب صوتي الى اجهاش بكائي ... المصدح غراب اسود ... لـــن أنعق بعد اليوم ، لن يشفق الكناس على صلعتي ، لن أقل أمامـــه من على المنصة .. لن تكون لي منصة بعد اليوم ..

سأقول كلمتي في الشوارع .. في المقاهي .. في المقابر ... »

تذكرت ياسين أن الآذان الكبيرة جيوبها كبيرة ... تحت المقاهي ، والجلسة الوثيرة .

واجهات المقاهي تجذبك ... ورائحة القوة « الاكسبريس » تثير شهوتك ، لكنك ياسين لن تجرؤ .... ازرارك مخضرمة ... والنـادل يقفل سترته الانيقة .

تذكرت النادل ياسين ... كنت تحب القهوة وكانت لديك محفظتك ... وأردت بيعها في لحظة ما ... لكنه سخر منك ... قهقة فـــي وجهك : « لو وضعت فيها صلعتك الكبيرة ما قبلتها مقابل برتقالـة معصورة » .

لن تدخل المقاهي ... انت لا تحتمل السخرية ... لكن حياتـك معلقة بشفاهك ... لمن ستقذف كلماتك ؟ ... من يسمعها ...

المارة يمرون ... كل تشده غاياته ... لن يتوقفوا ... وتمنيت ياسين لو كنت ضوءا احمر ... أو حافلة ... أو سيارة اسعاف ...

البرد يهزأ بالآمال ... البرد يجمد أطرافك فتقشعر" صلعتـــك اللماعة .. أنت تحب صلعتك ياسين ... مررت عليها منديلك النظيف يدلكها اذا جمدت ... يمسح حمرة خجلها اذا ادمعت مسار جلدتهـا الحساسة .

توقفت ياسين أمام مركز حراس الامن ... الامن مقدس والحارس أميـــن .

لمعت داخل القبة المصونة فكرة : لو ثرثرت قليلا مع هذا الشرطي المنتصب ؟ ....

تذكرت حية الجاحظ المنتصبة في الصحراء ... على كل ، هـــو لن يطردني قبل ان يعرف سبب مجيئي ... حراس الامن لا يطردون...

هم كرماء يمسكون الضيف ...

وتساءلت ياسين : فيما يفكر الشرطي ... لو قاطعت تفكيـــره يثور ويغتصب صلعتي ... تراه يفكر في عشيقته الفيتنامية ؟ ...

قهقهت ياسين مثلهم طويلا في الظلام ...

نظر اليك الشرطي .

ـ ماذا تريد ؟ ...

ـ أن أريك ما في محفظتي ...

ـ مسروقات ؟ ...

ـ مسروقات ؟؟ .. هل ترى على وجهي ملامح اللصوص ؟

ـ ولم لا ... ما دمت تحمل حقيبة منتفخة .. مع .. بدلة زرقاء.

ـ أو تلك علامات اللصوص ؟ ..

ـ نعم .. نوع من اللصوص ..

ولكنك لم تكن سارقا ياسين ... اصطدمت صلعتك بالتهمـــة فكادت تتنرفز لولا منديلك .

ابتسمت وعانقت صلعتك ....

قهقه الشرطي في تكاسل :

ـ آه فهمت ... أنت من أولئك الذين . أعانك « باخوسي » على مصابك . وانصفق الباب أمامك .

وجبنت ياسين . لم تقل له انك ... انه ... يشرب بصـــاق « النبلاء » ... ويتغذى من مشاريع وعودهم ... لم تقل له ان الجريمة قد تكون غير القتل العادي ....

لم تستطع قول هذا « ياسين » كنت تخاف « المنتمي » وتخـاف الامن والامانة ونعاس المؤمنين .

واصلت سيرك ... وخطواتك ضبطتها توازي سياج المقبـــرة . توقفت لتنظر المدينة المسلمة ، المستسلمة ، المسالمة ...

فكرت ياسين : لا فرق بين مدن المسلمين ... وتذكرت ان مدينتك رقعة شطرنج كبيرة تموت فيها البيادق دون ان تتحرك ...

وتنهدت ياسين ... تذكرت انك حتى بين القبور ... تذكـرت ان نبلاء جهتك يملخون صناديق الافيون للنعساء دون مقابل والنعساء يدخنونه في القاعات العامة وفي النوادي المفتوحة . وسعلت ياسيـن مرارا من رائحة سجائر الافيون ، وكنت لا تدخن لانك تريد ان تلقـي كلمتك في مكان ما ، وكنت تريد ان تبدد سجائر الدخان الماريجواني .

دخلت المقبرة ياسين ... كان لا بد ان تتكلم ... وكان لا بـد ان يسمعك انسان ... عليك ان تختار بين موتى الافيون وموتى الموت .

همست ياسين داخل ذاتك : لماذا ارتقب الناس والفرص ؟.. لماذا لا اخلقها ... وتذكرت انك لست موسى تشق البحر بعصـــاك ... وتذكرت انك في منطق « النبلاء » نبات طفيلي سام تقتلع صلعته، لتلقى كرة جذابة في ملعب كرة القدم .

افزعتك الصورة ياسين ... وجدت نفسك مرة أخرى بين القبور مساكن شعبية متلاصقة ... مجتمع بلا طوابق ولا سلاليم .

اعتليت « ياسين » كومة من التراب ... أحسست أنك تشرف على العالم ، تقبض عليه بفكرتك ، تخجله باستقامة هامتك ، تتحداه بعروق دمك النابضة .

وتصورت ركب النبلاء يتوقف امامك ... سيسخرون منك .... سيقولون عنك : سخيف ... معتوه ... لا يهم ياسين أنت تدرك انهم يخافون دماغك يرهبون مشاريعك ، ويشترون من أجل ذلك صنـاديق الافيون للنعساء ويفتحون امامك القاعات العريضة الفارغة ...

سيطاردونك ياسين ... لكنك لا تخاف المطاردة .. ليست لـك عشيقة ولا قصر الحمراء ...

نداء النعساء ياسين تسمعه عبر نعاسهم ... لم تفرك سعـــادة نظراتهم النائمة ... لن تخدعك نشوتهم وسط الدخان ...

* * *

انت ياسين في المقبرة ... والوضع شاذ ... وكلمتك ستقولها ...نظرت تجاه القبور ... فتحت محفظتك ... أخرجت منها أوراقك البيضاء المكتوبة ...

ارتجفت قليلا ياسين ... لكن كلماتك أقوى من الخوف ... كان كلامك بلا مقدمة ولا حواشي ...

« ستنتظرون طويلا ... لن تشهدوا فصول المسرحية ... لن يرفـع الستار ستبقون مشدودين الى الركح الفارغ ... لن يبرز الممثلون ... فالممثلون من ورائكم مقنعون يتفرجون في مسرح الدمى المتحركة ... »

ولم تتم كلامك ياسين ككل مرة ... كانت الرائحة الكريهة تلـف لسانك ... تخنق لهاثك ... تعبث بشعيرات خياشيمك .. أحسست انك تنهار ... وجماجم المدينة تتراقص حنوك في دورة مجنونة مضحكة. مسيلة للدموع ..

وكنت تريد استئصال العفونة من التربة السمراء ... ضغطت على اوراقك ، لم تكن قادرا على درء القذارة ... فكرت في حمل رفـش ومعول . وبعض المواد الكيمياوية المبيدة للعفونة قصدت المقبرة ياسين ... بعثت بخياشيمك ككلاب البوليس تبحث عن مكمن المؤامرة .

بدأت الحفر في القبر المشبوه فيه ... الرائحة غير محتملة ... وضعت منديلا على أنفك ... كنت مؤمنا بحفرياتك ... وصلعتـــك تبارك أعمال الحفر ياسين ....

حفرت طويلا ... والانهاك لا يهزم ... جلست على كومة التراب ... كنت تجرم ... اجراءك بطولة .. ابتسمت .. أدخلت يديك في جيوبك ... في فمك احساس يقضم التراب يسحق ارادة الكـــلام لديك .

الحفر صعب ياسين ... ودرء النتونة أصعب ...

الديدان تزحف رخوة كالارادة المشلولة ... تلمع في تثنيها تحت اشعة النجوم الباهتة ... تتناسل في زحفها الدائب ... مشهد فظيع للتناسل المريض .

الخنافس تتسارع ... تتصارع ... تنصرع مذعورة ... عـلى رأسها عناقيد المحاجم اللزجة ... الدوائر الحلزونية كلعنة الصدور المسلولة .

عالم صغير ... يتحرك في رطوبته المتعفنة ... تتعثر حشراتـــه في لعابها المزقق بالخضرة والسواد .

أحسست بزحف حشرة ما داخل بنطلونك ياسين .... تجمـدت اعصابك ... أحسست بالموت البارد ... كانت تزحف الى فخـــذك وكنت تموت شيئا فشيئا .

العناقيد اللزجة تنسج بلعابها رمشا تمشي عليه الى المدينـــة المهجورة . الزحف متواصل . شعور بالقيء يسيل على فخـــذك الايسر ....

تقززت ياسين ... ضغطت بيديك على بنطلونك تمنع انجـراف التربة الصالحة ... دمك ياسين يتجمد في ساقك اليسرى .

الريح ما زالت تحمل روائح العفونة ... وموادك الكيمياويـــة ياسين بعثرتها في تربة القبر القذر ... تحسست من جديد جوانـب القبر المفتوح . أحسست بثقب جانبي لم تتفطن اليه ... كان يلفظ القاذورات ... صلعتك تتحدى الظلام ..

واصلت الحفر ... أعصابك تتمزق .. أنت تؤمن بالحفر ياسين ... والتراب لا يؤمن بمعولك ... اكتشفت الثقب الآخر المشرف على القبر الثالث ارتجت صلعتك ... تواطؤ فظيع ياسين .... الجماجم تتنفس نفس الحشيش ، والعفونة تخدر المدينة الشعبية .

اصطدمت رجلاك بحفة « ساردينة » وتعثرت وتبعثرت... تجاوزت الالم ياسين ... خلفت قطرة دم سوداء على الرصيف .

كان الليل ليلا . وكنت ياسين سينا . وكانت رجلك تؤلمك. توقفت امام محل جريدتك... ستقتني جريدة الغد قبل الغد... وستعرف عنوان المسرحية الجديدة .... وسيذهب الناس للمشاهدة ... لن تمنعهـــم ياسين « فالاسعار شعبية اسعار خاصة بالطلبة والجيش »

عروسية النالوتي